الوحـــدة

استسلم لامرتين بعد فجيعته فى حبيبته الى الهم ، واستانس بالوحدة ، واستكان للعبرة ، وخـلا الى الحزن فى خلوات (ميل) ومن هناك بعث الى صديقه (فريو) بهذه القصيدة فى ٢٤ اغسطس من سنة ١٨١٨ وهى :

جلست محزون القلب ، مستطار اللب على قلة الجبل الشاهق ، وتحت ظلة السنديانة العتيقة ، أشيع شمس النهار وهى تغرب ، وأسرح بصرى فى وجوه السهل وهى تتغير :

* * *

فهنا النهر صخاب الموج ، جياش الزبد ، ينساب فى جوف الوادى ، ثم يضل فى ظلام البعد ! وهناك البحيرة راكدة السطح ، راقدة الماء ، تتراءى فى جوانبها نجوم الليل !

* * *

والطَّفَل لا يزال يلقى على رءوس الجبال الشجراء ومضاً من شعاعه ، وملك الليل [1] قد أخذ يصعد إلى عرش السماء فى محفته الندية ، فأشرقت جوانب الأرض ، وازدهرت حواشى الأفق .

* * *

وناقوس الكنيسة الغوطى قد هب يقرع الهواء برنينه الدينى ، فكف الفلاح

---

(١) ملك الليل : القمر .

عن العمل ، ووقف السائر عن المسير ، واختلطت هذه الأرانين المقدسة بما بقى من ضوضاء النهار وصخبه !

* * *

ولكن نفسى كانت من كل هذا خلية ! فما تبعث فيها هذه المناظر الجليلة ، ولا تلك الصور الجميلة ، ، نشوة ولا بهجة ! لقد كنت أتأمل الأرض وكأنها ظل متنقل أو خيال طائف !

* * *

إن شمس الأحياء لا تدفئ الموتى ، فكنت أنقل عينى من الربى إلى الجبال ، ومن الجنوب إلى الشمال ، ومن ظلمة الغسق إلى حمرة الشفق ؛ وأنفض[1] السهل والوعر ، والمأهول والقفر ، عسى أن أجد لنفسى سعادة فى مكان ، أو أتوسم لقلبى راحة فى إنسان ، فلا أعود بطائل !

* * *

وماذا تصنع لى هذه الأودية والأكواخ

---

(١) نفض المكان : نظر إلى كل ما فيه ليعرفه .

والقصور ما دمت لا أجد لجمالها فى عينى روعة ، ولا لسحرها فى قلبى فتنة ؟

أيها الأنهار والأحجار والغابات والخلوات العزيزة على ! إن غيبة مخلوق واحد من ربوعكن جعل عامركن خراباً ، وردَّ أنسكن وحشة !

* * *

سواء علىَّ أتطلع الشمس أم تغيب ، وتصحو السماء أم تغيم ، ويظلم الليل أم ينير الصبح ، فليس لى بغية فى اليوم ولا رجية فى الغد .

* * *

وحينما أرسل عينى تتبعان الشمس فى مدارها الرحب القصى ، لا أبصر فى كل مكان غير الفراغ والخلو ! لا حاجة لى إلى من تظله السماء ، ولا رغبة لى فيما تنيره الشمس .

* * *

ولكن من وراء هذا الفلك الدائر وهذه الشمس الساطعة أمكنة أخرى تسطع فيها الشمس الحقيقية ! فلو أتيح لنفسى

أن تخلص من قفصها لرأت فى تلك السموات حبيبها الذى طالما بكت عليه وحنت إليه !

* * *

هنالك أنتشى من رحيق الغبطة وأظفر بالأمل والمحبة ، وأنعم بما تاقت إليه نفسى من متع لا تمر على سمع ولا تدور بخلد

* * *

ما أعجزنى أن أطير إليه وأنا مثقل بقيود المادة خاضع لجاذبية الأرض ! وليت شعرى لماذا قضى الله أن أبقى إلى اليوم فى أرض المنفى وما تربطنى بها رابطة ولا تصلنى بأهلها صلة !

* * *

إذا ما ذوت الأوراق فى المرج ، وأسقطها قرُّ الخريف فى الوادى ، هبت عليها الشمال فذهبت بها أباديد ! وأنا بهذه الأوراق الذابلة أشبه ! فاحملنى أيتها الريح كما حملتها ، وانثرينى فى وجوه الفضاء كما نثرتها ، فما بعد الصباح إلا المساء ، وما بعد اليأس والوحدة إلا الفناء !